

فن التطنيش لمن أراد أن يعيش

قال أحد الصالحين رحمه الله: طنش تعش وتتعش، ومعنى ذلك أن لا تبالي بالحوادث والمنغصات، وقد سبق إلى ذلك زميلي وصديقي الدكتور أبو الطيب المنتبي، حيث يقول:

فَعَشْتِ وَلَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا

لَأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنَّ أَبَالِي

وأنت إذا ذهبت تدقق خلف كل جملة، وتبحث عن كل مقولة قيلت فيك، وتحاسب كل من أساء إليك، وترد على كل من هجأك، وتنتقم من كل من عاداك، فأحسن الله عزاءك في صحتك وراحتك ونومك ودينك واستقرار نفسك وهدوء بالك، وسوف تعيش ممزقاً قلقاً مكدرًا، كاسف البال، منغص العيش، كئيب المنظر، سيء الحال، عليك باستخدام منهج التطنيش، إذا تذكرت مآسي الماضي فطنش، إذا طرقت سمعك كلمة نابية فطنش، وإذا أساء لك مسيء فاعف ووطنش، وإذا فاتك حظ من حظوظ الدنيا فطنش، لأن الحياة قصيرة لا تحتمل التنقير والتدقيق، بل عليك بمنهج القرآن: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

سبَّ رجل أبا بكر الصديق فقال أبو بكر: سبُّك يدخل معك قبرك ولن يدخل قبوري، الفعل القبيح والكلام السيئ والتصرف الدنيء يُدفن مع صاحبه في أكفانه، ويرافقه في قبره، ولن يُدفن معك ولن يدخل معك، قال العلامة عبدالرحمن بن سعدي: واعلم أن الكلام الخبيث السيئ القبيح الذي قيل فيك يضر صاحبه ولن يضرك، فعليك أن تأخذ الأمور بهدوء وسهولة واطمئنان، ولا تُتم حروباً ضارية في نفسك، فتخرج بالضغط والسكري وقرحة المعدة والجلطة ونزيف الدماغ، لقد علمتنا الشريعة الإسلامية أن نواجه أهل الشر والمكروه والعدوان بالعضو وبالتسامح والصبر الجميل، الذي لا شكوى فيه، والهجر الجميل الذي لا أذى فيه، والصفح الجميل الذي لا عتب فيه، إذا مررت بكلب ينبح فقل: سلاما، وإذا رماك شرير

مارد بججر فكن كالنخلة ارمه بتمرة، إن أفضل حل للمشكلة أن تهيئها من أول الطريق، لا تصعد مع من أراد التصعيد، انزع الفتيل تخمد الفتنة، صب على النار ماءً لا زيتاً، لتتطفئ من أول وهلة، ادفع بالتي هي أحسن، وتصرف بالأجمل، واعمل الأفضل، وسوف تكون النتيجة محسومة لصالحك؛ لأن الله مع الصابرين، ويحب العافين عن الناس وينصر المظلومين، إننا إذا فتحنا سجل المشكلات وديوان الأزمات ودفتر العداوات، فسوف نحكم على أنفسنا بالإعدام، انغمس في عمل مثمر مفيد، يشغلك عن الترهات والسفاهات والحماقات.

إذا رفع سفيه صوتهُ بشتمك فقل له: سلام عليكم ما عندنا وقت، إذا نقل لك غبي تافه كلاماً قبيحاً من عدو فقل له: سلام عليكم ما سمعنا شيئاً، إذا تذكرت أنه ينقصك مال أو عندك أزمة أو عليك دين فتذكر النعم العظيمة والكنوز الكبيرة التي عندك من فضل الله من سمع وبصر وفؤاد وعافية وستر وأمن ودين وذرية وغير ذلك، لتجد أن الكفة تميل لصالحك، وأن المؤشر الأخضر يبشرك أن النتيجة تدل على أرباحك ونجاحك وفوزك، أفضل رد على النقاد والحساد هي الأعمال الجليلة والصفات النبيلة والأخلاق الجميلة، أما المهاترات والسباب فهذا شأن كلاب الحارة، والله يقول في وصف النبلاء الأبرار: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِينَ﴾، ونعود إلى آية الله أبي الطيب المتبني، ليقول لنا:

لو كلُّ كلبٍ عوى ألقمته حجراً

لأصبح الصخرُ مثقالاً بدينارٍ

فلو ذهبنا نرمي الكلاب إذا نبحتنا بحجارة، فسوف يرتفع سعر الحجارة ولا نستطيع شراؤها، ويقول الشاعر سعد بن جدران رضي الله عنه (بالشعبي):

وانت لو حصلت لك في الزمن وجه غريب

مثل ما قال المثل: دام تمشي مشها



الفارغون أكثر ضجيجاً

إذا مرَّ القطار وسمعت جلبة لإحدى عرباته فاعلم أنها فارغة، وإذا سمعت تاجراً يحرِّج على بضاعته وينادي عليها فاعلم أنها كاسدة، فكل فارغ من البشر والأشياء له جلبة وصوت وصراخ، أما العاملون المتأبرون فهم في سكون ووقار؛ لأنهم مشغولون ببناء صروح المجد، وإقامة هياكل النجاح، إن سنبله القمح الممتلئة خاشعة ساكنة ثقيلة، أما الفارغة فإنها في مهب الريح لخفتها وطيشها، وفي الناس أناس فارغون مفلسون أصفار رسبوا في مدرسة الحياة، وأخفقوا في حقول المعرفة والإبداع والإنتاج، فاشتغلوا بتشويه أعمال الناجحين، فهم كالطفل الأرعن الذي أتى إلى لوحة رسام هائمة بالحسن، ناطقة بالجمال، فشطب محاسنها، وأذهب روعتها.

وهؤلاء الأغبياء الكسالى التافهون مشاريعهم كلام، وحججهم صراخ، وأدلتهم هذيان، لا تستطيع أن تطلق على أحدهم لقباً مميّزاً ولا وصفاً جميلاً، فليس بأديب ولا خطيب ولا كاتب ولا مهندس ولا تاجر، ولا يُذكر مع الموظفين الرواد، ولا مع العلماء الأفاضل، ولا مع الصالحين الأبرار، ولا مع الكرماء الأجواد، بل هو صفر على يسار الرقم، يعيش بلا هدف، ويمضي بلا تخطيط، ويسير بلا همة، ليس له أعمال تُتقد، فهو جالس على الأرض، والجالس على الأرض لا يسقط، لا يُمدح بشيء؛ لأنه خال من الفضائل، ولا يُسب لأنه ليس له حساد، وفي كتب الأدب أن شاباً خاملاً فاشلاً قال لأبيه: يا أباي أنا لا يمدحني أحد، ولا يسبني أحد مثل فلان، فما السبب؟ فقال أبوه: لأنك ثور في مسلاخ إنسان، إن الفارغ البليد يجد لذة في تحطيم أعمال الناس، ويحس بمتعة في تمرغ كرامة الرواد؛ لأنه عجز عن مجاراتهم، ففرح بتهميش إبداعهم، ولهذا تجد العامل المثابر النشط منغمساً في إقتان عمله وتجويد إنتاجه، ليس عنده وقت لتشريح جثث الآخرين، ولا بعثرة قبورهم، فهو منهمك في بناء مجده، ونسج ثياب فضله، إن النخلة باسقة الطول، دائمة الخضرة، حلوة الطلع، كثيرة المنافع، ولهذا إذا رماها سفيه بحجر عادت

عليه تمرأً، أما الحنظلة فإنها عقيمة الثمر، مشئومة الطلع، مرة الطعم، لا منظر بهيج ولا ثمر نضيج، إن السيف يقص العظام وهو صامت، والطبل يملأ الفضاء وهو أجوف، إن علينا أن نصلح أنفسنا ونتقن أعمالنا، وليس علينا حساب الناس، والرقابة على أفكارهم، والحكم على ضمائرهم، الله يحاسبهم، والله وحده يعلم سرهم وعلاانيتهم، ولو كنا راشدين بدرجة كافية لما أصبح عندنا فراغ في الوقت نذهب فيه في كسر عظام الناس، ونشر غسيلهم، وتمزيق أكفانهم، التافهون وحدهم هم المشغولون بالناس: كالذباب يبحث عن الجرح، أما الخيرون فأعمالهم الجليلة أشغلتهم عن توافه الأمور: كالنحل مشغول برحيق الزهر، يحوِّله عسلاً فيه شفاء للناس، إن الخيول المضمرة عند السباق لا تنصت لأصوات الجمهور؛ لأنها لو فعلت ذلك لفشلت في سباقها وخسرت فوزها، اعمل واجتهد وأتقن، ولا تصغ لمثبط أو حاسد أو فارغ.

هبطت بعوضة على نخلة، فلما أرادت أن تطير قالت للنخلة: تماسكي أيتها النخلة فأنا سوف أطير، فقالت النخلة للبعوضة: والله ما شعرت بك يوم وقعت فكيف أشعر بك إذا طرت؟! تدخل الشاحنات الكبرى عليها الحديد والجسور وقد كتبوا عليها عبارة: خطر ممنوع الاقتراب، فتبتعد التكاسي والسياكل ولسان حالها ينادي: ﴿لَا يَحِطَمْتُكُمْ سَلِمْتُمْ وَجُنُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، الأسد لا يأكل الميتة، والنمر لا يهجم على المرأة لعزة النفس وكمال الهمة، أما الصراصير والجعلان فعملها في القمامة وإبداعها في الزبالة.



لا تكن (نصف ونصف)

أهلك العالم أربعة:

نصف حاكم ونصف فقيه ونصف نحوي ونصف طبيب، فنصف حاكم يفسد البلدان، ونصف عالم يفسد الأديان، ونصف نحوي يفسد اللسان، ونصف طبيب يفسد الأبدان، لأن نصف حاكم لا يملك الأهلية لإدارة الدولة؛ كمن عطل الشريعة وتلاعب بالقانون وألغى الدستور، وأصاب البلد كله بالشلل. ونصف عالم يفتي بالجهل أحياناً وبالظن أحياناً، فهو شاك في معلوماته، ليس عنده جواب كافٍ ولا دواء شافٍ لكل مسألة، فليس بعالم محقق يوثق بعلمه، وليس بجاهل حتى يرتاح منه. ونصف نحوي يفسد اللغة، فهو فصيح في كلمة، عامي في أخرى، لا هو بالذي تكلم بالبيان الناصع، ولا هو أراح وارتاح فتكلم بالعامية البسيطة. ونصف طبيب فتح عيادته لإمراض الناس وقتلهم بدوائه، وصرف السم في علاجه، فهو الذي أهلك الأرواح وقتك بالأجسام، والأمة تحتاج إلى أهل البراعة في كل تخصص، وهم الراسخون في فنونهم.

فالحاكم القوي العادل رحمة من الله على الأمة وبركة على البلاد، فبقوته وعدله تنفذ الأحكام، وتقام الحدود، وتؤمن السبل، ويقسم المال بالسوية، ويحمي الأوطان، ويدافع عن الكرامة، ويبني مجد الوطن. والعالم الراسخ المحقق حجة في فتواه، وقدوة في عمله، وإمام في إصلاحه، فهو مربى جيل وصاحب منهج، يحمل مشروع الإصلاح وروح التجديد. والنحوي المتمكن من فنه، يقيم اللغة، ويحافظ على لسان الأمة، ويرعى ثقافتها، ويصون هويتها. والطبيب الماهر الحاذق يشفي الله به المرضى، ويداوي به أهل السقم، وينقذ به الأرواح، ومشكلة الكثير في بلاد الإسلام من نصف حاكم ونصف عالم ونصف نحوي ونصف طبيب، ولهذا تجد العوج في باب السياسة، والخلل في المنهج العلمي، والاضطراب في اللغة، والضعف في الطب، وإلا كيف تفسر أن أمة المليار ونصف المليار لم تأخذ مكانها

الطبيعي، ولا منزلتها اللائقة بها من السيادة والريادة، وهي أكثر الأمم سكاناً، وأغزرها معرفة، وأعمقها تاريخاً، وأكبرها ثروة، وأوسعها مساحة، فأين ذهب السكان والمعرفة والتاريخ والثروة والمساحة، إن الذي أذهب مقدرات هذه الأمة وجعلها في الصفوف الخلفية هم بعض الحكام والعلماء والنحاة والأطباء، وهم الذين يحملون أنصاف الأهلية، فعطلوا مشروع النهضة، وطمسوا روح التجديد، ودمروا الثروة، وأوقفوا مسيرة التنمية، فعاشت أوطانهم في إعاقة عقلية ونفسية وجسمية، فبعض الدول الإسلامية لها مائتا سنة وهي (تفحط) مكانها، وتراوح محلها، وجاءت بعدها اليابان وألمانيا فسبقتها إلى الأمام ثلاثمائة سنة، واكتفت بعض الدول الإسلامية بالأهازيج الشعبية والأغاني الوطنية، ورفع أقواس النصر وصور الزعيم الملهم القائد الضرورة على المباني والجسور والكباري والمدارس والجامعات والمقاصف والمطاعم والمقاهي والحانات.

الواجب على الأمة أن توقف نصف الحاكم ونصف العالم ونصف النحوي ونصف الطبيب عند حده، ولا يسمح لهم بممارسة تحويل الأمة والأوطان إلى حقول تجارب من الفشل والإحباط والضياع والإهمال، أكثر البلدان فقراً ومرضاً وجهلاً وتخلفاً هي الدول الإسلامية؛ لأن الكثير منها نحى الشريعة جانباً، وأوقف عجلة التقدم، فلا حفظوا الأديان، ولا صانوا الإيمان، ولا طوروا الأوطان، ولا أصلحوا البلدان، بل هم أهل هذيان وغشيان وخسران وخذلان.

إن علينا أن نعيد فن التخصص في حياتنا، فمن توجه لباب فعلية أن يحكمه وأن يجيد فيه، وإلا فليتركه لغيره، الحاكم إذا فسدت أهليته لا يصلح أن يقود الأمة، والعالم إذا اختلف منهجه وضعفت معرفته يلزم بيته، وصاحب اللغة إذا لم يتقن فنه ويحكم علمه يمنع من مزاولة التصنيف والتلفيق، والطبيب الهزيل الهش الغبي يحجر عليه، ويمنع من العبث بالأجسام واللعب بحياة الناس.



الحج خضوع وخشوع لا لعب ولا شغب

كتب الله الحج على عباده مرة في العمر للمستطيع، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفي الحج من الحكم والأسرار والمقاصد ما يفوق الوصف، فهو مؤتمر عالمي يلتقي فيه ممثلو العالم الإسلامي بكل طبقاته وأعراقه وأجناسه وألوانه ولغاته، يعبدون رباً واحداً، ويعتقون ديناً واحداً، ويتبعون رسولاً واحداً ويقفون على صعيد واحد.

فالطواف بالبيت: إعلان لقصد الباري وحده، والدوران حول بيته لقضاء الحاجات منه، وتفريج الكربات، وحل الأزمات، وتكفير السيئات، ورفع الدرجات. السعي بين الصفا والمروة: امتثال للأمر، واقتداء بالمرأة البارة الراشدة «هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام». والوقوف بعرفة: إعلان التجرد والتوحيد والتضامن، فالحاج متجرد من ثيابه ومن حَوِّله وقوته ومن أسرته وعشيرته، موحداً ربه، مخلصاً لمولاه، متبعاً رسوله ﷺ، متضامناً مع إخوانه، متآلفاً مع أبناء دينه. ورمي الجمرات: نبذ لمنهج الشيطان، وإعلان الحرب على إبليس وأعوانه، وإظهار البراءة من ضلاله ومن غيه، وتذكير النفس بعداوته وحربه وكيد ومكره. وحلق الرأس: استشعار الانتهاء من الماضي، وطرح السيئات، ووضع الخطايا، والابتعاد عن المخالفات، وتجديد السير مع الله، والبداية بتوبة نصوح. والذبح: امتثال للأمر، وإقتداء بالنبي ﷺ، وفداء لإسماعيل، وتضحية بالغالي النفيس، وصدقة على الفقراء، وطهرة للنفس من الشح، وإظهار شعائر الاتباع والإذعان والعبودية.

فالْحج يجمع كل العبادات من صلاة وتلاوة وذكر ودعاء وطواف وسعي ووقوف ورمي ونحر وحلق وإحرام، ثم إن فيه اتحاد كلمة الأمة، ووحدة صفها، ومدارسة شؤونها، ومعالجة قضاياها، وحل مشكلاتها وفيه من استشعار المساواة بين الملك والمملوك والغني والفقير والقوي والضعيف، فلا تمايز في اللباس أو في المكان أو في الزمان أو في أي عمل من الأعمال، بل إن إحرام الملك كإحرام أفقر فقير، ورمي الأمير كرمي المسكين، فكل الحجاج يقفون في صعيد واحد شعناً خبيراً، فقراء إلى الله، مساكين إلى رحمته، محتاجين إلى عونه، ذليلين تحت قدرته، خاضعين تحت

جبروته، خاشعين لكبريائه، متضرعين باكين نادمين، كلُّ يدعو بطريقته ولهجته ولفته وحاجته، واللَّه قد تجلَّى لهم في يومِ عرفة، فيعلمُ حاجات الجميع مع تعدد اللغات واختلاف النغمات، وتباين اللهجات، وكثرة الطلبات، فيعطي الجميع، ويمنح الجميع، فيعافي المبتلى، ويشفي المريض، ويتوب على التائب، ويقبل المنيب، ويجبر الكسر، ويفغر الزلَّة ويستتر الخطيئة.

ثم إن في التجرد من اللباس والاغتسال والتطيب والإحرام تذكير بالموت والرحيل والكفن والدفن سواء بسواء، ليتذكر الإنسان قدومه على ربه، وذهابه إلى مولاه، وانتهاء الحياة، وإقبال الآخرة، وانصرام العمر، وتصرم الأيام، فيستعد بعمل صالح، ويتجهز بطاعات وعبادات، ويعزم على ترك المخالفات واجتناب المعصية، والحرص على تجديد التوبة، والجد في السير بزاد إلى يوم المعاد.

وفي الحج من ترك الأوطان، وفراق الأهل والجيران، والابتعاد عن الإخوان والخلان، والهجرة إلى الرحمن وإلى ديار الإيمان، ومهبط القرآن، ومولد سيد ولد عدنان، ما يثير في النفس من لواعج الشوق، وذكريات الحنين، وشجون المحبة، وأطياف اللوعة لمعاهد الرسالة، ومغاني النبوة، ومرايع التوحيد، فيزداد المؤمن إيماناً وانتساباً لهذا الدين، واشتياًقاً لتعاليمه، وحنيناً للسلف الصالح، وحباً صادقاً للمرسل والرسول والرسالة، فيحصل تمام الإذعان والقبول والتسليم لله عز وجل، ويحصل كمال الاتباع والافتداء برسول الهدى ﷺ، وتحصل غاية الانتماء والانتساب لدين الإسلام، الدين العظيم الخاتم، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ﴿حينها يكون الحج من أعظم الأعمال وأجل الطاعات، وأفضل القربات، حتى قال ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، فهل بقي بعد هذا الثواب من ثواب، وفوق هذا الأجر من أجر، ذلك لمن صدق، واستحضر النية، وأحسن العمل، واجتنب المخالفة، وليس الحج مظاهرات، ولا احتجاجات، وإنما خضوع لرب الأرض والسماوات، وتدبر للآيات، وتكفير للسيئات.



ظهِرُوا الصَّحَافَةَ مِنَ السَّخَافَةِ

واجب على رؤساء التحرير والصحف والمجلات والنشرات والدوريات والملاحق أن يكونوا أمناء أمام الله، ثم ضمائرهم، ثم أمتهم وتاريخهم عن كل ما يشرفون على كتابته، فإن البعض فتح الباب على مصراعيه لكل من أراد أن يجرب حظه في الكتابة، أو يتعلم الصحافة، أو يتدرب على الثثرة، فصارت بعض الصحف كالحراج، تُعرض فيه الخردة، والأواني المكسورة، والأدوات المستعملة المدومة، وفتح المجال لطلبة محو الأمية وخريجي فك الحرف يترشقون بالسخف، ويتطارحون بالتبذل والسطحية والهمجية والبلطجية، فأحدهم إذا أراد أن ينتقم من عدو له هجاه في الصحيفة بقصيدة، وإذا أراد أن يدوس حاسده حطمه بمقالة في الجريدة.

ووجد بعض مرضى النفوس مجالاً للانتقام من المجتمع والاقتصاص من الأمة؛ لأنهم يحملون غدداً سامة، وهم مصابون بأنفلونزا الخنازير، وقد سال صديد الكراهية وقيح الحقد من قلوبهم، فهم (زعانين، طفشانين، زهقانين) من أنفسهم ومن الناس ومن الجامعة ومن الأسرة ومن الدولة ومن المجتمع ومن العالم. فلا يعجبهم شيء، ولا يرضون عن شيء، ويعترضون على كل شيء، ويتدخلون في كل شيء، مع سخافة الثقافة، وضحالة المعرفة، ويبس العاطفة، وجفاف المشاعر، ومرض النفس، وخمود الروح، وسقوط الهمة، فلا ينظرون إلى البياض بل إلى السواد، ولا يبصرون المناقب بل المثالب، ولا يشاهدون المحاسن بل المساوئ، ولا يرون الإيجابيات بل السلبيات: ﴿صُمُّكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

لا يحبون الإشادة بالنجاح، ولا تزكية الفضلاء، ولا مدح النبلاء، ولا الثناء على الشرفاء، إنما يعجبهم الغيبة والنميمة والوقيعه والشائيات والشائعات والقبيل والقال، وأحاديث آخر الليل، ومجالس السرايب ومقاهي الدهاليز وندوات الأبواب الخلفية، فهم كالحخفايش يحبون الظلام، ويعشقون التخفي والريبة والتستر وراء

الأسوار، ولا يعملون تحت الضوء لأنهم أعداء للحقيقة، خصوم للحجة، أدياء على المعرفة، متسولون على أبواب العلم متطفلون على موائد المجد، مصابون بانفصام في الشخصية وانهزام في النفوس، فهم كالذباب لا يقع إلا على الجرح، ومهما عرضت على الذباب من أنواع الزهور والورود والخمائل والبساتين فإنه لا يجربها، ولا يقع عليها، ولا يرشف رحيقها، ولا يشم عبيرها، ولا يتمتع بجمالها، وإنما يبحث عن الجيفة، ويدور على المجزرة، ويحلّق على المزبلة، ويحوم على القمامة.

الواجب على الإنسان المثالي صاحب الضمير، والأمين على القلم والكلمة: أن يحمل المثل العليا والمبادئ السامية والخُلُق النبيل، والروح الفاضلة، وأن يتكلم بحكمة وينطق بصواب، وأن يشيد بالنجاح، ويثني على الحسنات، ويتعاقف عن الزلات، ويغض الطرف عن الهفوات، ما لم تصل إلى حق الديانة وحقوق الآخرين، أما جلد الناس، والتنقيب في دواوين أخطائهم، وتفتيش سجلات عثراتهم، فهو عمل استخباراتي تجسسي، وليس بمذهب علمي ولا معرفي، وكلما قرأت للعظماء وأساليب نقدهم وتوجيههم وتقويمهم انحط عندي قدر السفهاء، وهبطت لدي مراتب السخفاء (وبضدها تتميز الأشياء)، إن علينا جميعاً أن نغسل قلوبنا بماء العفو، ونطهرها بمطهر التسامح، ونعقمها بأكسيد الحلم، ونضمد جراح المرضى، وننشر ثقافة الحب والأمن والعفو والمصالحة مكان ثقافة الكراهية والقطيعة والهجر والتناحر والتدابير، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾

إن القلب السليم والضمير الحي، واللسان العف، والهمة العالية، والنفس الشريفة، هي مؤهلات المجد، وأوسمة الشرف، وتيجان السيادة والريادة والقيادة، وقل للأوباش ﴿ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾، إن الشمس لا تستر بالغربال، وإن القمر لا يحجب بالبرقع، وإن السيل لا يرد بالعباءة، وإن الريح لا يوقفها باب الكوخ، يقول نجم الدين الشافعي:

وكنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْجِنَّ عِنْدَ

اسْتِرَاقِ السَّمْعِ تُرْمَى بِالنَّجُومِ

فَلَمَّا أَنَّ عَلَوْتُ وَصِرْتُ نَجْمًا

رُمِيْتُ بِكُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ

وقل للهمزة اللمزة ميت الضمير خاوي الروح: مكانك في الخلف، ومنزلتك

أسفل، ومررتبك تحت ﴿فَتَعَسَّأَ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.



مزقتنا الطوائف والأحزاب والجماعات

من أعظم المصائب التي حلت بالأمة الإسلامية مصيبة الفرقة والشتات والتمزق إلى أحزاب وجماعات وطوائف، والله عز وجل سمانا المسلمين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. لكن الكثير منا لم يرضَ بهذه التسمية، فبدأ ينشئ له جماعة وطائفة وحزبا، ويعلق لافتة تزيد في ضعفنا وهزيمتنا وفرقتنا، وقد ذم الله التفرق والاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لم يكن عند المسلمين اسم يجمعهم، ويعرفون به إلا المسلمين، لم تكن هناك أسماء مصطنعة ومخترعة ومبتدعة، زادتنا وهنأ وهزيمة وضعفاً وبغضاً وتناحراً وشقاقاً، كلما عنّت لأحدهم فكرة طائفة أو حزب أو جماعة أنشأ دكاناً صغيراً، وكتب عليه جماعة كذا وكذا، وكأن العناية الربانية والفتوحات الإلهية أرشدته لهذا الإنجاز، الذي اختصر فيه الإسلام إلى جماعة صغيرة، تدعى أن على يديها إنقاذ الأمة وإسعاد البشرية، خذ مثلاً اسم ﴿حَزْبِ اللَّهِ﴾ هذا الاسم في القرآن لكل المسلمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حَزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فأتى حزب صغير في دولة صغيرة في بقعة صغيرة، فاحتكر الاسم واختطفه وسمى نفسه به، وكان المليار ونصف المليار مسلم لا يدخلون فيه، وتتابع الفتوحات والتسميات واللافتات والياфطات، كل يمزق ويسمي، فمنهم من سمي جماعته جماعة الدعوة والتبليغ، وجماعة التحرير، وجماعة الجهاد، وجماعة التكفير والهجرة، وجماعة الإخوان المسلمين، وجماعة أنصار السنة، وجماعة أهل الحديث، وجمعية الحكمة، وجمعية الإصلاح، وجهة الإنقاذ، والعدالة والتنمية، والسلم المدني، والجماعة الإسلامية، والقرآنيون، إلى آخر تلك القائمة، وأصبح لكل منهم منبر وإذاعة، وصحيفة ومجلة، وشاشة ومخيم، ومسجد ومدرسة، يربي أتباعه على الحزبية المقيتة والعصبية لجماعته، والنيل من الآخرين، والتحذير منهم،

والتنديد بهم، والتهوين من قدرهم، والحط من مكانتهم، فصارت الأمة الإسلامية شيعياً وأحزاباً وطوائف وجماعات، فذهبت هيبتها، وفُلَّ حدها، وتمكن منها عدوها، وصرنا ضحكة في العالمين، حتى إننا لما سافرنا إلى أمريكا وأوروبا وجدنا المساجد والمراكز الإسلامية موزعة مقسمة بينهم، وكل يرشق الآخر ويتهمه ويحذر منه، وكل طائفة وجماعة أخذت من الإسلام جانباً واحداً، وركزت عليه وضخمته، وانشغلت به عن جوانب الإسلام الأخرى، فالذين ينادون بالجهاد اختزلوا الإسلام في الجهاد فقط، وأهملوا فرائض وسنن وفضائل الإسلام، والذي اشتغل بالدعوة وتسمّى بها انهمك فيها ونسي حقول الإسلام الأخرى، والذي تولّه وتعلق بالحاكمية انغمس فيها، واستمات من أجلها، حتى كأن الإسلام إنما أتى بالحاكمية فقط، وكأنها أعظم من التوحيد الخالص، والذي تشاغل بالخلافة والإعداد لها صارت هي قضيته، حتى أنسته كل قضية، وما كفانا هذا التمزق والتشتت والتناحر والتقاتل.

حتى أتى من المتأخرين من بدأ يُنشئ جماعات جديدة، فتكسرت فينا النصال على النصال وصرنا مضرب المثل في النزاع والفرقة والعداوة والتباغض، أين عقلاء الأمة؟ أين علماءها؟ أين حكماؤها؟ أين مصلحوها؟ أين مفكروها من هذه الداهية الدهياء والمصيبة الماحقة الساحقة؟ لماذا لا نقوم قومة صادقة، ونجتمع على اسم (المسلمين) الاسم الشرعي المثبت في كتاب الله وسنة الرسول ﷺ؛ لأن الأمة بعد عصر الرسول ﷺ والصحابة تمزقت في المعتقد والمذهب الفقهي والفكري والدعوي والسياسي إلى طوائف وأحزاب وجماعات، فنشأت القدرية والجبرية والأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والمعطلة والأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية وأهل الحديث والزيدية والجارودية والإسماعيلية والفاطمية، إلى آخر تلك الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، فأهل السنة سبعون جماعة، والشيعية سبعون طائفة، والصوفية سبعون طريقاً، والعجيب أن هذه الجماعات والطوائف تأخذ على الحكام العرب اغتصاب السلطة، والاستيلاء على الحكم مع الدوام حتى الموت، ونظام التوريث ورؤساء هذه الجماعات والطوائف يبقون في مناصبهم خمسين سنة ولا يستقيل أحدهم

حتى يموت، وتأكل الأرض منسأته، فلما خرَّت تبين أتباعه أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

فيا حسرتاه كيف مزقتنا هذه المسميات، وخطمت إرادتنا، وأذهبت قوتنا، وشتتت شملنا، ويا ويلتاه أليس فينا رجل رشيد، وعالم سديد، ومجدد فريد، يعيد الأمة إلى اسمها الأول (المسلمين)، لنجتمع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بلا بدع ولا انحراف ولا اختلاف؟ وهنا سوف تكون عزتنا ونصرنا وسعادتنا، أما وضعنا الراهن فوضع مؤسف يُرثى له، لا يفرح به إلا عدو، ولا يرضاه إلا شامت، ولا يؤيده إلا حاسد، فحسبنا الله ونعم الوكيل.



لماذا يهاجر العرب إلى الغرب؟

كان المفترض عقلاً ومنطقاً وشرعاً أن يهاجر الغرب إلى أرض العرب، لأنها أرض الرسالة المحمدية الخالدة، وبها مهبط الوحي وملتقى الحضارات، وأرض الآثار وبلاد السياحة ووسط الدنيا ومنبر الثقافات المتنوعة، لكن انقلبت الآية، فهاجر كثير من العرب إلى بلاد الغرب، فما دخلنا مدينة في أوروبا وأمريكا إلا وجدنا الجالية العربية تملأ الجامعات والمدارس والمصانع والمساجد، منهم من هرب من القمع والجلد والتعذيب وتكميم الأفواه ومصادرة الحريات وآثار التعذيب في صدره وظهره. ومنهم من سافر لطلب الرزق بعد أن عضه الفقر ونهشه الجوع ودمرت البطالة والعطالة. ومنهم من ارتحل لطلب المعرفة وترك بلاده التي تُصنّف جامعاتها في آخر سلّم جامعات الدنيا. وهؤلاء العرب الذين شردوا من بلادهم كان الكثير منهم فقيراً أو أمياً أو مدخولاً في عقله من آثار الكتب. فمَنهم من وصل سالماً وكأنه خرج من الجحيم، ومنهم من غرق في البحر ليفر من نار تلظى، ومنهم من سلم نفسه لمراكز الشرطة والأمن في بلاد الغرب على مذهب قول الشاعر:

اقتلوني وما لكأ

واقتلوا مالكاً معي

وبعدما وصل هؤلاء العرب إلى الغرب تحولوا إلى مهندسين وأطباء وأساتذة وكتّاب ومفكرين؛ لأنه فتحت أمامهم أبواب المعرفة والعمل والإنتاج والإبداع والاكتشاف والاختراع، وبقي زملاؤهم في العالم العربي منهم من تقاعد وأصيب بالسكري وضغط الدم والهلوسة والهذيان والخرف، فصار أصلع مقعداً مهبولاً، ومن زملائهم من تحول إلى عمل خاص في رعي الغنم وتكسير الحطب والمشاركة في الرقصات الشعبية وتمجيد القبيلة والتنديد والوعيد للقبائل الأخرى، ومنهم من لزم بيته ينتظر الموت، وقد كتب وصيته وودع أهله، وهو يفكر في الآية: ﴿قُلْ

إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴿١٠﴾، دخلنا مدينة (فورت كلنرز) ولاية كلورادو في أمريكا فاستضافنا رجل ليبي، أخذ اللجوء السياسي بعدما هرب من ليبيا شريداً طريداً معذباً مبعداً مكبوتاً، فعمل في الولاية ثم اشترى مزرعة استضافنا فيها، فيها أنواع الشجر وصنوف الثمر، وعنده أبقار وأغنام، وقد بنى فيها فلة جميلة مع الماء العذب والحدائق الغناء، فأكرمنا أي إكرام، ووصف لنا حاله الأول في بلده وحاله الثاني، فأخذنا العجب، كيف يفر الإنسان من وطنه بعدما يُنكَلُّ به ويُعذَّب ويبهذل إلى دولة نشتمها صباح مساء، ويسمونها بعضنا (الشیطان الأكبر)، ويدعو عليها خطباً، ثم يتحول المسلم الفقير المطرود من أرضه المعذَّب في وطنه إلى غني يملك بيتاً ومزرعة ووظيفة، ويعيش أرقى حياة، وأسعد حال في ولاية أمريكية، لماذا لا نفكر نحن العرب في مآسينا ومصائبنا، ونعترف أن كثيراً من دولنا ألغت الشريعة الإسلامية، ونحّت العدل، وصادرت الحريات، واستولت على الحقوق، وشطّبت على حرية الرأي، وحوّلت البلاد إلى سجن كبير، بينما الغرب يناقشون أمورهم بهدوء، ويحلّون أزماتهم بالحوار، ويسوسون رعاياهم بالعدل، ولا يكفينا هذا، بل إن الكثير منا يتغنى بإنجازات وهمية ومشاريع شفوية، ليعيش أحلام اليقظة، ومهرجان ألف ليلة وليلة؛ لأنه يعيش الوهم فيخضع نفسه، ويضحك على ذقته، ويستهزئ بتاريخه، ويسخر من أمته.

قطعنا آلاف الأميال في القطارات الأوربية والأمريكية فإذا الترتيب والنظام والنظافة وحماية البيئة والذوق الراقى واحترام الآخر مع اعترافي بأن المادية الغربية قتلت الروح وحوّلت الإنسان إلى آلة مع قبائح كثيرة لهذه الحضارة المادية الغربية، لكن إذا نظرت إليهم في عالم الدنيا ونظرت إلى بلاد العرب إلا ما رحم ربك من بعض الأجزاء والمدن العربية وجدت البون الشاسع، نقرأ في شريعتنا الإسلامية النظام والعدل، وحسن الخلق والدعوة للسلام، وحقوق الإنسان واحترام الآخر، وعدم تجريح المشاعر، والاهتمام بالبيئة، وطلب المعرفة، والحث على العمل والإنتاج، ومحاربة الفقر والجهل والمرض والظلم، فتجد الغرب يطبقون

ثورة التجديد

ذلك ونجد كثيراً من العرب يقولون ذلك، بألسنتهم، أما واقعهم فمُرير، أرجو أن نكف عن لعنهم وشتمهم والدعاء عليهم ونشتغل بإصلاح أنفسنا وتحسين مستوانا والرقي بجامعاتنا، وتنظيف بيئتنا وعمارة أرضنا وتقويم عوجنا ومعالجة أخطائنا بعدها سوف يعود العرب إلى أرضهم، وربما هاجر الغرب إلى أرض العرب.



فن تصعيب دخول الجنة

فُتِحَ على بعض الناس باب تصعيب دخول الجنة على عباد الله، فكأن مفاتيح الجنة في جيبه، يُدخِلُ من يشاء ويمنع من يشاء، وكأن صكوك الغفران في يده، يرحم من يشاء ويعذب من يشاء، فإذا وجد العصاة بشرهم بالنار، وأقسم عليهم أن لا يدخلوا، الجنة، وإذا ذُكِرَ له الطائعون شكك في طاعتهم، وذكر عيوب أعمالهم، وإذا سمع نصوص الرحمة لم يمرها على ظاهرها، وإنما يؤولها حتى إنني سمعت بعضهم يشرح أحاديث تكفير الذنوب، مثل قوله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة. غُفِرَ ذنوبه وإن كانت كزبد البحر»، فقال معلقاً على الحديث: الحديث ليس على ظاهره، ولا تكفّر كل الذنوب ولا الكبائر، وهناك شروط في تكفير الذنوب لم تذكر في الحديث، وكأنه يرد على رسول الله ﷺ، ولما ذكر حديث «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة»، قال معلقاً: الحديث ليس على ظاهره، وهناك شروط وفرائض وموانع لا بد من اجتماعها، حتى يُجرى الحديث على ظاهره، وقائل الحديث هو النبي المعصوم بأبي هو وأمي ﷺ أعرف الناس بمدلول اللغة، وأعلم الناس بمراد ربه عز وجل، وأتقى الناس وأخشاهم لمولاه تقديس اسمه.

وهكذا تستمر هذه الطائفة لتصعيب دخول الجنة، حتى لا يثق الطائع بطاعته، ولا يتوب العاصي من معصيته، فلا يذكرّونه بالتوبة ولا برحمة أرحم الراحمين، فإن جاء نص في الوعيد أجروه على ظاهره وزادوا عليه، كقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام» قالوا معنى الحديث: أن النمام خالد في النار، محرم عليه دخول الجنة، وهذا ليس مقصود الحديث، وإذا أتت بشرى بالمغفرة والرحمة في آية أو حديث غيروا المعنى، وأفسدوا الفرحة بالبشرى، وهذا المسلك الخطير في تصعيب دخول الجنة، يورث اليأس والقنوط والإحباط عند كثير من الناس، حتى يقول بعضهم: ما دام أننا إذا تبنا لا يقبل منا، وأن أعمالنا الصالحة مدخولة بالرياء والسمعة، فما الفائدة من طاعتنا إذا كنا هالكين أصلاً.

وجدت شباباً محبباً صعباً عليهم بعض الوعظ التوبة ودخول الجنة، فأصبحوا يرددون: ما الفائدة من دعائنا ومن صلاتنا، وقد تلوثنا بالخطيئة، وتلطفنا بالذنب، ووجدنا من أصابه الوسواس من كثرة خوفه، لأنه استمع إلى مواظ قاتلة، وخطب تهديدية حماسية، تتوعد العصاة بنار تلظى، ولا تفتح لهم باب الأمل ولا الرجاء برحمة الله، والسؤال: من الذي رشح هذه الطائفة المتعنة في الدين المتعنتة في الشريعة، لتحكم على الناس بدخول الجنة أو الحرمان بدخولها من الذي فوّضهم بتفريغ النصوص من محتواها، فنصوص الرحمة عندهم لها معنى آخر غير مراد من ظاهرها، ولها باب باطن تدل عليه نصوص أخرى، ونصوص العذاب والوعيد تجرى على ظاهرها ويزاد عليها، ويُجمع معها نصوص أشد منها، فإذا ذكرتهم بالحديث الصحيح عند مسلم عن أبي ذر أن الرسول ﷺ قال له: «بشرني جبريل أنه من مات من أمتك يشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله فهو من أهل الجنة»، قال أبو ذر: «إن زنا وإن سرق؟» قال ﷺ: «وإن زنا وإن سرق»، قال أبو ذر: «وإن زنا وإن سرق؟» قال أبو ذر: «وإن زنا وإن سرق؟» قال أبو ذر: «وإن زنا وإن سرق؟ فقال ﷺ: «وإن زنا وإن سرق على رغم أنف أبي ذر»، فإذا سمعوا هذا الحديث جعلوا له تأويلاً يخالف ظاهره.

لماذا لا نكون مع نصوص الكتاب والسنة بين الخوف والرجاء؟ ولماذا لا نكون على ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال: الفقيه كل الفقيه من لم يؤمن الناس من مكر الله، ولم يقنطهم من رحمة الله. وهذا هو منهج أهل العلم والإيمان، فإن الله جمع في كتابه بين الخوف منه والرجاء في رحمته، فقال: ﴿نَجَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾



احذروا العباءة الفرنسية

انهمكنا في المسائل الفرعية عن المسائل الكبرى، وتشاغلنا بالجزئيات عن الكليات، وصار حديثنا وكتاباتنا وردودنا وجدلنا وصراخنا ونواحننا عن العباءة الفرنسية والاختلاط والخلوة وحكم الموسيقى والأخذ من اللحية والعدسات الملونة للمرأة وحكم صبغ الحواجب وغيرها من المسائل، وهذه مسائل لا بد أن يبين حكمها الفقيه والعالم بقدرها وحجمها، لكن المشكلة في هذا السخط والاهتمام الكبير وانشغالنا بها عن أصول الديانة وقواعد الملة ومقاصد الشريعة وكبار المسائل في الحياة، تركنا تجميل صورة الإسلام للعالم، وأهملنا الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ونسينا تزكية النفوس وتطهير الضمائر وتصحيح العقيدة وإصلاح الأخلاق وطلب العلم النافع وعمارة الأرض وحماية البيئة وامتنال سيرة الرسول ﷺ، وللأسف لا زلنا نتطاحن فيما بيننا بردود غاضبة مزعجة، ونفوس متشددة مع التهديد والوعيد، حول مسائل تغطية وجه المرأة، وكشف وجه المرأة وقيادة المرأة للسيارة، والاختلاط والخلوة، وأحكام غرفة النوم، حتى خشينا على أنفسنا أن نقع بسبب هذه المسائل في حرب أهلية.

فكتاب في الصحف يصفون من خالفهم بالجمود والتزمتم والتخلف والأفكار الرجعية والنفس الخارجي والمنهج التكفيري، ودعاة يصفون هؤلاء الكتاب بالزنادقة والمرترقة والمرتدين والخارجين عن الإسلام والمحاربين لله ولرسوله، أعرف بعض الوعاظ انشغل في دروسه وكلماته بالعباءة الفرنسية وحكمها ولونها، وكيف تلبسها المرأة، وهل تضعها على كتفيها أم على رأسها، فهو مغرم بهذا الحديث، عاشق لهذه المسألة، لا يكاد يخلو حديثه من التنبيه عن حكم العباءة وأنواعها وأشكالها، والواجب على العالم والداعية أن يبين حكم كل مسألة على قدر حجمها ومساحتها، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، لكن أن ينهمك مجتمعنا

وعلمائنا ودعاتنا وكتّابنا في مسائل صغيرة، وتسمع لهم صجيجاً وضجيجاً ونواحاً وصراخاً مع السب والشتم للمخالف، فهذا ليس من الدين، إن طائفة من شباب المسلمين وقعوا أسرى للمخدرات، وطائفة صاروا رهائن للإرهاب، وطائفة للعطالة والبطالة، وطائفة للجهل، فأين الاهتمام بهؤلاء وتربيتهم ودعوتهم بالحسنى، وعندنا في العالم الإسلامي تخلف في التنمية والصناعة والزراعة والتكنولوجيا بأنواعها، بل وجدت كثيراً من المسلمين في الدول التي سافرنا إليها لا يصلون، بل منهم من لا يعرف العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص، فهم على القبور عاكفون، وعلى الأضرحة يطوفون، وعند المزارات ينوحون، ثم تجد أهل العلم والدعوة يؤلّفون ويحاضرون ويدرسون في مسائل فرعية، لها حجمها الخاص بها، ولكنها أشغلتهم عن كبار المسائل، وهذا شأن عصر الانحطاط والهامشية والجمود والتقليد.

سافر العالم الآخر بالمركبات الفضائية إلى الكواكب السيّارة في الفضاء: كعطارد والمريخ، ووصلوا أعماق البحار، واستخرجوا كنوز الأرض، واستولوا على خيرات الدنيا، ونحن نصرخ في الفضائيات والدروس والمحاضرات عن العيابة الفرنسية، بالله هل انشغل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي وعبد الرحمن الداخل وهم يفتحون الدنيا شرقاً وغرباً، ويؤسسون أعظم حضارة، وينشرون أفضل رسالة، هل انشغلوا بالجدل العقيم والاختلاف السقيم في مسائل فرعية وتركوا المقاصد الكبرى للإسلام؟! بل هبوا والله بعدما عرفوا الدين الصحيح والعقيدة السليمة، يدعون أهل الأرض لعبادة الواحد الأحد، ويزكون أخلاق الناس، ويظهرون ضمائرهم، ويصلحون مجتمعات المعمورة بالحكمة والعدل والمحبة والرحمة والسلام.

أما نحن فمع انحسارنا وتقهرنا وما نعيشه من أمية وجهل وبطالة وعطالة في العالم الإسلامي مع غيبش في العقيدة عند الكثير وترك للصلاة ووقوع في الموبقات، ومع هذا تجدنا نشبنا وغرّزنا وغصنا في دقائق المسائل، نتناقش ونتهاجر ونتقاطع بسبب هذه المسائل، ولهذا لا نستحق في هذه المرحلة قيادة العالم، ولا

تصدر البشرية، ولا أخذ زمام المبادرة في إصلاح الناس وصناعة القرار الدولي، ولن تعود لنا الخيرية حتى نعود كما كان أولنا في فهم الإسلام الصحيح، وإعطاء كل مسألة حجمها، وكل قضية حقها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

